مصطفى لطفي المنفلوطي

العبرات

وهي مجموعة روايات قصيرة. بعضها موضوع وبعضها مترجم

دار الهدى الوطنية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

اليتيم

« موضوعة »

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشر أو العشرين من عمره ، وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كثب من بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى شاحباً نحيلاً منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً فلم أكن أحفل بشيء من أمره ، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك أمام مصباحه ، وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنيه سنة من النوم فأعجلته من الذهاب إلى فراشه وسقطت به مكانه ؛ فما رمت مكاني [1] حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيه .

---

(١) رام مكانه : زال عنه وفارقه .

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو هماً من هموم الحياة أو رزء من أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع [1] الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض ، فلم أزل واقفاً مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى ، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة الصديق لصديقه وأستبثه [2] ذات نفسه وأشركه في همه لولا ، أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعاً حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل إلي ،

---

(١) الضارع : الضعيف النحيل .

(٢) استبثه السر : طلب إليه أن يبثه إياه .

وهي صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لي من المصير إليه ، فتقدمت إلى خادمي [1] أن يتقدمني بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت إلى باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً ، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إلي هنيهة لا ينطق ولا يطرف [2] فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة فعناني أمرك فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعت يدي حيث وضعها فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمررت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض [3] من الجلد يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بضع قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إلي نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك ، فقلت ما شكاتك أيها الأخ ؟ قال : لا أشكو شيئاً ؛ فقلت : فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال : لا أعلم ؛ قلت : أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟ فتنهد طويلاً ونظر إلي نظرة دامعة وقال إنما

---

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به .

(٢) طرف فلان بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٣) الفضفاض : الواسع .

يبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ، ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فلم أجد بداً من دعاء الطبيب رضي أم أبى ، فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو — من حيث يعلم أني أسمع شكواه — إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأزقة المظلمة في الليالي الباردة ؛ فلم أحفل بتعريضه لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً : إن عايلك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه ، فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر ؛ فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال : أنت هنا ؟ قلت : نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل ، قال : أرجو أن أكون كذلك ، قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهراً أو هماً باطناً ؟ قال: أشكوهما معا ، قلت : فهل لك ان تحدثني بشأنك وتفضي إلي بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال : هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة ، وبامضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال : قد وثقت بوعدك ، فان من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ، لا يكون كاذبا ولا غادرا .

أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة

من عمري فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم برا وإحسانا وأكثرهم عطفا وحنانا فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحدا من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلا ، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخا بعد ما تمنى على الله ذلك زمنا طويلا فلم يدرك أمنيته فعنى بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبا شديدا ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين الى حين ، فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت في دراستي .

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدا لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعاده إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة ، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدتها فيها .

وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها ، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء

مائها ، ولمعان حصبائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها ، وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار فنجتمع على حديث نتجاذبه أو طاقة تؤلف بين أزهارها أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه ، وتلك الخمائل الخضراء التي كنا نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فتشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها ، وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطىء الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأنا قد ظفرنا بغنم عظيم ، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى وناديها بأسمائها التي سميناها بها ، فاذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبي نداءنا ، ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي وداً وإخاء ، أو حباً وغراما ، ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوما إني أحبها لاني كنت أضن بها — وهي ابنة عمي ورفيقة صباي — أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها ، ولا قدرت في نفسي يوما من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي ، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط [1] منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون ، لأني كنت أجلها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك ، ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها ، أمنزلة

---

(١) تسقط فلان الخبر : أخذه شيئاً بعد شيء .

الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فاستعين بارادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يتطلع إليها .

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تنشب (١) أن ذهبت به إلى جوار ربه ، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظناً : « لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أماً كما كنت له أبا وا وصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي » فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه ونظرات غير النظرات ؛ وخالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل فتداخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ، وفي هذا العالم طريدا .

فاني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت علي الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوي خجلة متعثرة ، وقالت : قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب . وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتماها ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .

فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمت به كبدي ، إلا أنني

---

(١) لم تنشب : لم تلبث .

تماسكت قليلا ريثما قلت لها : سأفعل إن شاء الله ولا أحب إلي من ذلك . فانصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت في نفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده » .

ثم انسللت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها[1] وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها .

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى
لو انا وجدنا من فراق لها بدا

كفى حزنا أن رحت لم أستطع لها
وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريدا طريدا حائرا ملتاعا قد اصطلحت على الهموم والأحزان ، فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساد لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ، ولا معيناً .

وكانت معي صبابة[2] من مال قد بقيت في يدي من آثار

---

(١) الكلة : الستر الرقيق .
(٢) الصبابة : البقية من الشيء .

تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع علي الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

فقنعت بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفرداً كمجتمع وغائباً كحاضر وبعيداً كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه . وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب موطنه ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري .

لبثت على ذلك برهة من الزمان حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة أو موشكة ، وكنت مأخوذاً بأن أهيىء لنفسي عيشاً مستقلا ، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون فأهمتني نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلا إلى القوت بوجه ولا حيلة ، فعمدت إلى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه وحملت

سائرها[1] إلى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملا فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فنائه امرأة تسائل أهل البيت عني فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي ، فقلت : فلانة ؟ قالت : نعم ، قلت : ماذا تريدين ؟ قالت : لي إليك كلمة فائذن لي ، فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت : هات ، قالت : مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس ، فقلت : ما بكاؤك ؟ قالت : أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ قلت : لا ، فما أخباره ؟ فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه[2] كتاباً مغلقاً فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغتفر لك ألا تأتي إلي لتودعني الوداع الأخير » .

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبي وقالت : أين تريد يا سيدي ؟ قلت : إنها مريضة ولا بد لي من المصير إليها . فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء إليها .

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم

---

(١) سائر الشيء ، باقيه .
(٢) أضعاف الثوب : أثناؤه .

له مكاناً ، ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين ؛ ففتحت عيني فإذا الليل قد أظلني وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ قالت : نعم . قلت : قصّي علي كل شيء فأنشأت تقول :

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً » ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير و« بشر كأنما كانت تعالج في نفسها ألماً ممضاً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل[1] يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروسن والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت إليه أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً . فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها فدنوت منها فأشارت إلي أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت : في أي ساعة نحن من الليل ؟ قلت : في الهزيع الأخير منه ، قالت : أأنت وحدك هنا ؟ قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً ، قالت : ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت

---

(١) أبل من مرضه : برء منه .

لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت : بلى يا سيدتي أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئاً ، ولكني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت : ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك يا سيدتي .. فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين علني أراك وأرى من يهديني إليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً .

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك .

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت .. فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .

* * *

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت[1] وأن هذه أفلاذها . فدنوت منه وقلت : ما بك يا سيدي ؟ قال بي أني أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها .

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه فاذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي وأني عاجز مستضعف لا اعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الذماء[2] وإني أستحييك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساخطاً ناقماً ، فتول أنت أمرها بيدك واسترد وديعتك إليك وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك » .

ثم أمسك رأسه بيده كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ قلت : نعم ، وأسأل الله لك السلامة ، قال : الآن أموت طيب النفس عن كل شيء .

---

(١) ارفض الشيء : تفرق وترشش .

(٢) الذماء : بقية النفس .

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها .

* * *

لقد هون وجدي على هذا البائس المسكين أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حياً فلباها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الشهـــداء

« مترجمة »

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصبابة من المال تترشف[1] الرزق منها ترشفاً مصانعة للدهر فيها

أما الصبابة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالا ، ولا عضداً .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فخاطت الملابس حتى عشى[2] بصرها ، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت في المنازل حتى ذلت ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معاً ، فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الأهلية

---

(١) ترشفت الإبل الماء : أخذته قليلا قليلا .

(٢) عشى بصره : ضعف . وله معان اخرى .

حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاء وصبراً ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

دارت الأيام دورتها فاكتهلت الأم وشب الولد وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بد له أن يعيش ، وان يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه فمشى يتصفح وجوه الرزق وجهاً وجهاً ، ويرد مناهله منهلا منهلا ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجده حتى مهر فيها ، والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملا مغموراً لا تدر له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفينة بعد الفينة[1] فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن يسد خلتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها حنت إليه حنين النيب[2] إلى فصالها[3] وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً ، ولم تر منه كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم ، فلا تجد لها بداً كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذي يفزع إليه جميع البائسين والمحزونين في بأسائهم وضرائهم ، خلوتها ودموعها ، فتبكي ما شاء الله ان تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسمة كأن لم تكن باكية قبل ذلك .

---

(١) الفينة : الحين .

(٢) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة .

(٣) الفصال : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فصل عن أمه .

دخل عليها ولدها يوماً في خلوتها فرآها تبكي ورأى في يدها صورة فتبينها فاذا هي صورة خاله فألم بسريرة نفسها وأمسك بين أهداب عينيه دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها ، وقال : رفّهي عن نفسك يا أماه فستعلمين خبر غائبك عما قليل ، فتطلق وجهها وأضاء ، وقالت : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : قد علمت أن معرضاً سيقام للرسم في واشنطون حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدني بعض أصدقائي أن يساعدني على الشخوص إليه علني أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهي وأنقذ به نفسي ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره ، فاستبشر بشرها الذي كان متلألئاً وقالت : لا تفعل يا بني فما أنا بشقية ما رأيتك بجانبي ، وما أنت بشقي ما قنعت بما قسم الله لك ، ولئن فعلت لا تكونن امرأة على وجه الأرض أعظم مني لوعة ولا أشقى ، ولئن بكيت لفراق أخي مرة فسأبكي لفراقك ألف مرة ، وإني كلما ذكرته وجدت في وجهك العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معاً .

فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها في رحلته الأماني العذاب حتى أسلست وهدأت واسلمت إلى الله أمرها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فاذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب في أمريكا لا يعرف له سنداً ، ولا عضداً .

وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هناك ، وكان

يمثل فيه موقف الوداع الذي جرى بينه وبين امه على شاطئ البحر يوم رحيله وكان موقفا محزنا فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر في نفوسهم منظره فقضوا له بالجائزة التي كان يمني نفسه بها فما حصلت في يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهـــل الأرض طرا وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ، وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث ، ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه[1] وملأ قلبه غيظاً وحنقاً أطلع له في تلك السماء المظلمة المدلهمة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى إلى حظيرته راضياً مغتبطا كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما اشقى الإنسان به .

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضا ، وكتب إليها أنه لن يبرح هذه الأرض حتى يفي لها بما عاهدها عليه ، ومشى في طريقه يفتش عن خاله في أنحاء البلاد ويسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين[2] حتى حدثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك . فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة مـــوحشة مقفرة ، وكانت لا تـــزال تغشي سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور الأولى فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء بعض الجبال المنقطعة ، فما راؤه حتى هاجت في صدورهم

---

(١) أرابه : شككه وجعله يرتاب .

(٢) الطارئون : المهاجرون .

أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض حتى للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ؛ فداروا به دورة سقط من بعدها أسيرا في أيديهم فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام » .

* * *

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم المعرض إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة ، من اكاذيبة وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذي آده[1] وأثقله أن هناك إنسانا آخر كريما عليه يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى المحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ؛ فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه شيئا ، فلم يعلم هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل فانحدر إليه من ثقب صغير في حائط المحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه فأنس به أنس الغريب بالغريب وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته ، واستمر بصره عالقا

---

(١) آده الأمر أودا : بلغ منه مجهوده

به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل حتى رآه يتقبض شيئا فشيئاً ، ويتراجع قليلا قليلا ، ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها ، فحزن لفراقه حزن العشير لفراق عشيره ودار بعينيه حول نفسه فاذا قطعٌ سوداء مظلمة تتدّجى وتتكاثف من حوله ويمسّ بعضها في أحشاء بعض . وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر في ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسا حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه فوجدها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكيا منتحبا .

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ولم يبق بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه ، ونسي أمه ونسي العالم الذي كان يعيش فيه ، والعالم الذي انتقل إليه ، ونسي الليل والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء ، وأصبح في منزلة بين منزلتي الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل ، ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسد يتحرك ، أو خيال يسري ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام !

• • •

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه فأصبح من يراها في طريقها يرى عجوزاً حدباء

والهة متسلبة[1] مذهوباً بها[2] قد توكأت على عصا ما تزال تضطرب في يدها ، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوقف أهداماً[3] خلقاناً يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهداباً متلاصقة أو مزقا[4] متطايرة ، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنائس تسأل الله أن يرحمها ، والناس أن يطعموها ، حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سمتها[5] إلى شاطىء البحر وجلست فوق بعض صخوره تناجي أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجم كوكبه في أفق السماء ، فاذا سرت إليها نسمة وجدت ريح ولدها فيها ، وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها ، وإذا تراءت لها سفينة ماخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله ، فلا يزال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطىء فتقف في طريق ركبانها تتصفح الوجوه وتتفرس الشمائل وتهتف باسم ولدها صارخة معولة وتقول : عباد الله ، من يدلني على ولدي أو ينشده لي في معالم الأرض ومجاهلها فقد أضللته منذ عهد بعيد فحار بي الدهر من بعده فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلا فاحتسبوها يداً عند الله وحدثوني عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم ليأتي على أثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس فظنها امرأة ملتاثة [6] فرثى لها او سائلة فتصدق عليها .

---

(١) المتسلبة : التي أحدث على زوجها أو غيره .

(٢) المذهوب به : المسلوب عقله ، ويقال أين يذهب بك ؟ أي بعقلك .

(٣) الأهدام : جمع هدم (بالكسر) وهو الثوب البالي .

(٤) المزق : قطع الثوب الممزقة .

(٥) السمت ، الطريق .

(٦) التاث : جن واختلط .

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن ولم يبق على شاطىء البحر من غاد ولا رائح سواها. فتتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمته مدفناً لولدها فتظل تبكي وتقول:

في أي بطن من بطون الأرض مضجعك يا بني، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك، وفي أي قاع من قيعان البحر مثواك، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك؟

لو يعلم الطير الذي مزق جثتك، أو الوحش الذي ولغ دمك، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه، أو البحر الذي طواك في جوفه، أن وراءك أماً مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي؟

عد إلي يا بني فقيراً أو مقعداً أو كفيفاً فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التي أفارق فيها هذه الحياة لأقبلك قبلة الوداع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخف بزورتك عني ضمة القبر، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة.

ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت دبيباً وهي لا تعلم هل تركت ولدها وراءها، أو أنها ستجده أمامها؟

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً.

* * *

دخل السجان على الفتى عشية ليلة في محبسه فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته المثبتة في الجدار فانتزعها من مكانها فلم يقل شيئاً ولم يسائل نفسه هل هي ساعة نجاته أو ساعة حمامه ، ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى ، ففتح عينيه فرأى مكاناً غير مكانه ، ومنظراً غير منظره ، وسماء وأرضاً غير سمائه وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئاً فشيئاً ، حتى استفاق فتذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنا تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وظلمته ، والقيد ووطأته ، ثم طار بخياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعده ، وحنينها ، ويأسها من لقائه ، فذرفت عينيه دمعة كانت هي أول دمعة أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل العبرة إثر العبرة لا يهدأ ولا يستفيق حتى مضى شطر من الليل وهدأ الناس جميعاً في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فإنه لكذلك وقد رنقت في عينيه سنة من النوم إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه فخيل إليه أن ملكاً نورانياً نزل إليه عن علياء السماء لينقذه من شقائه فتبينه فإذا فتاة جميلة بيضاء ما التفت الأزر [1] على مثلها حسناً وبهاء ، تتمشى في بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرهو [2] الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار فسألها : من أنت ؟ قالت : أنا فتاة من فتيات هذا الحي وقد ألممت بشيء من أمرك

---

(١) الأزر : جمع إزار .

(٢) الرهو : الرقيق .

فعلمت أنك شقي فرحمتك مما أنت فيه فجئتك أطلق وثاقك لتذهب حيث تشاء ، فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب ، فعجب لزنجية بيضاء ووثنية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنبيها قلباً يعطف على البؤساء والمنكوبين ، وقال في نفسه : ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه ، وأنساه كل شأن في الحياة إلا شأنها فلبث صامتاً واجماً لا ينطق وقال لها : اذهبي لشأنك يا سيدتي فإنني لا أريد النجاة ، فعلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلا ، وانج بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل فإذا أنت فلذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك فإن شديداً علي جداً أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد الذابح ، أو مضغة في فم الآكل ، قال : إنك لاتستطيعين نجاتي . قالت : لا أفهم ما تقول فإنني ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع ، قال : قد كنت قبل اليوم موثقاً بوثاق واحد فأصبحت موثقاً بوثاقين فإن استطعت أن تحلي وثاق قدمي فإنك لا تستطعين أن تحلي وثاق قلبي ، فألمت بسريرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة فرفع رأسه إليها ولبث شاخصاً إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تمثاله البديع حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جفنها على وجهه ، فجرت في مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمعة مثلها فالتقت بدمعتها فامتزجتا معاً ، فمد يده إلى ردائها فاجتذبها إليه وقال : قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبي نتحدث قليلاً ، فجلست على مقربة منه فقال لها : إن

امتزاج دمعي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياء أو أمواتاً ، فإن كنت تريدين لي النجاة فإنني لا أنجو إلا بك ، قالت : ليتني أستطيع ذلك يا سيدي ، قال : وما يمنعك منه ؟ فنظرت إليه نظرة دامعة وقالت : أخاف أن أحبك . قال : ولم تخافين ؟ قالت : لا أعلم ، قال : أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار ، ولكني أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل بي ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك ، أما اليوم فحسبي عزاء عما ألاقيه من غصصه وآلامه نظرة رحمة تلقينها علي في مصرعي ، ودمعة حزن تسكبينها من بعدي على تربتي ... فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهي سلكة فانتثر ، ثم مدت يدها إلى قيده فعالجته حتى انصدع ، وقالت : إني ذاهبة معك وليقض الله في وفيك قضاءه .

مشيا يطويان القفار ، ويعبران الأنهار ويضحيان [1] مرة ويخصران [2] أخرى ، ويردان آجن [3] المياه وصفوها ويقتاتان يابس الثمار ورطبها ، فاذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطىء غدير أو سفح جبل أويا إليه فاستراحا بجانبه قليلاً ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزل تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وأخذا مضجعهما من تربه وأحجاره نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليباً صغيراً فقبلته . ثم أنشأت تهمهم

---

(١) ضحى من باب طلم : برز للشمس .
(٢) خصر كسمع : برد ، ومنه « وأما بالعشى فيخصر » .
(٣) الآجن من الماء : الذي تغير طعمه ولونه .

بكلام خفي كأنها تناجي به شخصاً غائباً عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة وتطلب معونته على أمر لا تعرف مصيره ، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها ، وكان كلما سألها عن شأنها التوت عليه ودافعته عنها حتى تلوم أن يعاودها فتركها وشأنها ، وقد أصبح يحمل في صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يوماً على سواء العمران فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء .

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقة يتحدثان ، وهي أول مرة جلسا فيها للحديث فقال لها : ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة الطويلة في هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادة لا أحسب أنه قد أعد خيراً منها لعباده المتقين في جنات النعيم ، قالت : ومتى كانت هذه الحياة موطناً للسعادة أو مستقراً لها ؟ ومتى سعد أبناؤها بها فنسعد مثلهم كما سعدوا ؟ وإن كان لا بد من سعادة في هذه الحياة فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقداً أن لا سعادة له فيهـا ليستطيع أن يقضي أيامه المقدرة له على ظهرها هادىء القلب ساكن النفس لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب . قال : إن السعادة حاضرة بين أيدينا ، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نطوي هذه المرحلة الباقية من هذا القفر فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله فنجثو أمام مذبحه ساعة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ، ولا يكدر صفونا مكدر ، فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها . فقال : ما بكاؤك يا سيدتي ؟ فقالت : أتذكر ليلة النجاة إذ دعوتني إلى الفرار معك ، فقلت لك إني أخاف إن فررت

معك أن أحبك؟ قال : نعم . قالت : واأسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف .. ثم صرخت صرخة عالية وقالت : ماذا يا أماه .. وسقطت مكبّة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى في أعضائها فعلم أنها البرداء[1] وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ومشى يفتش عن الناس في كوخ كان يتراءى له على البعد حتى بلغه فوجد على بابه كاهناً شيخاً جليل المنظر فدنا منه وحياه تحية حي بأحسن منها وقال له : ما شأنك يا بني ؟ قال : إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائي تشكو البرد فهل أجد عندك جذوة نار أعود بها إليها لتصطلي بها ؟ فمكنه من طلبته ، وقال له : «كتب الله ولعليلتك السلامة يا بني فاذهب فإني على أثرك» فعدا الفتى عدواً شديداً حتى بلغ النهر فأدهشه أن رأى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو برداً ولا ألماً ، فأقبل عليها متهللاً ، وقال لها : لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام ، قالت : ما كان يخالط نفسي من ذلك شيء فاجلس أحدثك حديثي فقد آن أن أفضي به إليك ، فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه وتقول :

أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلي مع الأيام دفينه ، فقد ولدتني أمي على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عاماً فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولداني وعشنا جميعاً حقبة من الدهر عيش السعداء

---

(١) البرداء : الحمى مع البرد .

الآمنين وكان رجال قبيلة أمي لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلة من ليالي الظلام فاقتادونا جميعاً إلى أرضهم ، وكنت إذ ذاك لم أسلخ العاشرة من عمري فقتلوا أبي أمامي وأمام أمي قتلة لا يزال منظرها حاضراً بين يدي حتى الساعة لا يفارقني ، فحزنت أمي عليه حزناً شديداً ما زال يدنو بها من القبر شيئاً فشيئاً حتى جاءت ساعتها فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فدعتني إليها أمامه وقالت لي : يا بنية إن أمي قد ولدتني للشقاء في هذا العالم وأحسب أني قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكوني سبباً في شقاء أحد من بعدك وانذري نفسك للعذراء نذراً لا يحله إلا الموت . فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذري فتلألأ وجهها بشراً وسروراً ، ثم نظرت نظرة في السماء وقالت : ها أنذا على أثرك يا رافائيل ، ثم فاضت روحها .

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : هل تعرفين وطن أبيك وأسرته ؟ قالت نعم ، وسمتهما له فاستطير فرحاً وسروراً وقال : أحمدك اللهم فقد وجدت ضالتي ، فعجبت لأمره ، وقالت : وأي ضالة تريد ؟ قال : أتذكرين ليلة اللقاء إذا امتزجت دمعتانا معاً فقلت لك إنها صلة بيني وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ قالت : نعم . قال : قد كنت أمت[1] إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالي معاً فقالت بصوت خافت : أحمد الله فقد وجدت لي في هذه الساعة العصيبة أخاً ، وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ، ووجهها يربدّ شيئاً فشيئاً ، فذعر

---

(١) مت اليه بكذا : توصل إليه به .

الفتى وأرتاع وحنا عليها وقال : ماذا أرى؟ قالت : لا ترع فأصغ إليّ فان لحديثي بقية لم تسمعها، إنني منذ حفظت وصية أمي ووهبت العذراء نفسي ، كان لا بد لي أن أتخذ لي ملجأ أفزع إليه في اليوم الذي أخاف أن يغلبني فيه هواي على ديني ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى جاء اليوم الذي خفتـــه فلجأت إليها فنجوت وأستودعك الله . فنظر الفتى حيث أشارت فرأى قارورة مطرحة وراءها فتناولها فإذا هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شيء .

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكأن طائراً قد نفض جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق في مكانه صعقة لم يشعر بعدها بشيء مما حوله فلم يستفق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفاً أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائراً لا يفهم مما يرى شيئاً ، فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهاً لوجه ونظر إليه نظرة شزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط في عقله فأخذ يهذي ويقول :

أتدري أيها الرجل لم ماتت هذه الفتاة؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض ، ما كفاكم ، أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذاً ، ولا رداً؟

إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه ، والمرء وقلبه ؟

إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون؟ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خافقة .

أتظنون أيها القوم أننا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر ؟ بئست الحياة حياتنا إذن وبئس الخلق خلقنا ، إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ولا نعرف لنا ملجأ نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

هذه الطيور التي تغرد في أفنائها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سمائها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسوائم في مراتعها ، والسوارب في أحجارها .. وإنما تعيش جميعاً بنعمة الحب . فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت أيها القساة المستبدون أرفع

شأناً من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة !؟

فهنيئاً لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ، فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم.

إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ، فإنا لا نستطيع أن نتبعكم إليها، ولا أن نعيش معكم فيها .

إن وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم .. فلا بد لنا أن نقف في وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم حتى لا تصلوا إليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

إنا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، وفي استطاعتنا أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

كتاب الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آياتكم ، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغماتكم .. هذا الجمال المترقرق في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكنه ، إنما هو مرآة نقية صافية تنظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فنخر بين يديه ساجدين ، ثم نصغي إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا : « أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتم حياة للجمال فأحيوه » .

ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمراً سواه .

* * *

وما وصل الى حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه، ووهنت عزيمته، وارتعدت مفاصله، فسقط في مكانه يزفر زفيراً شديداً، ويئن أنيناً محزناً، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه وقال له: ارفق بنفسك يا بني فما أنت بأول ثاكل على وجه الأرض، ولا فقيدك بأول راحل عنها، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء للمحسنين، فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ويقول: اغفر لي ذنبي يا أبت، فقد كنت من الظالمين، قال: غفر الله لك يا بني فما دون رحمة الله بـاب موصد ولا رتاج معترض، قال له: يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض وليس لها فيها أحد سواي، وقد ماتت من أجلي وفي سبيلي، فهل تأذن لي أن أدنو منها لأقبلها قبلة الوداع في آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض؟ قال: افعل يا بني، فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمة شديدة وأهوى بفمه على فمها فقبلها لأول مرة في حياته قبلة فاضت روحه فيها.

• • •

في الساعة التي دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطىء ذلك النهر الجاري مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها الزيارة من حين إلى حين، فنظرت إلى مكانها الذي اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خالياً فأشرفت على الحفرة فوجدتها مترديه فيها معفرة بترابها لا حراك بها، فملأت بالتراب الذي كان مجتمعاً حول الحفرة تلك الأشبار الخمسة التي هي مسافة ما بين الحياة والموت، ثم أسبلت فوق تربتها دمعة كانت هي كل نصيبها من الدنيا.

الحجـــاب

« موضوعة »

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ؛ وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ؛ وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ؛ وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد ؛ وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته

على علاته وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيته واجماً مكتئباً فحييته فأومأ إلي بالتحية إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت : وأي امرأة تريد؟ قال : تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي . قلت : إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تحدث ؟ قال : ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد ، قلت : ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه ، قال : إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال بجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي[1] القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك

---

(١) العادي القديم : نسبة إلى قبيلة عاد .

حياء منهن وخجلاً ، ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلياء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا الى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي هماً وحزناً ونظرت إليه نظرة الراحم الراثي وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ قال : نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعتُ ، قلت : هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء ممـــا لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ؟ قال : ربما وقع لي شيء من ذلك وفماذا تريد ؟ قلت : أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك، قال : إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع ، فتداخلني ما لم أملك معه وقلت له : تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركككم فيفسدها عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من

جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال : أتنكر وجود العفة بين الناس ؟ قلت : لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟.

أفي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة : لم لم يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعاً نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه وخجلاً ان خلت محفظته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟ .

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟ .

وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتمطق[1] بحديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز .

---

(١) تمطق : صوت بلسانه عند استطابة الطعام .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شتّم ودعوا هذا الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتّم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاء طويلا .

أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟.

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ، تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فواعجباً لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها !..

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا

بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنـــا وكانت العفة في سقاء[1] من الحجاب موكوء[2] فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منـــه قطرة قطرة حتى تقبض[3] ، وتكرش ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة .

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب ؛ فقلتم لها إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك

---

(١) السقاء : وعاء الماء من جلد السخلة .

(٢) أوكى القربة : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .

(٣) تقبض : يبس .

أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها : إن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه .

وقلتم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت[1] .

وقلتم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك ، والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شؤون بيتها .

وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات[2] ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تعرض الأمة

---

(١) أفاد : بمعنى استفاد .
(٢) استهتر فلان : اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم بها ، وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وكذلك انتشرت الزيبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاءكم لها وعطفكم عليها !

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجعل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا

شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداركِكم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زمناً ينمو فيه !

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضروريّاتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء .

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانهـــا فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغنى عنه .

ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها .

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من يشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ؛ فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهى أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها

مع الرجال ان تحتفظ بنفسها وكرامتها فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها!

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .

* * *

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها ، فقلت له : لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، وائذن لي أن أقول لك إني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ، لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من اهلك تقتلني حياءً وخجلاً . ثم انصرفت . وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشياً

لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثـــة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجاً من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال : لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً ، وما أنا بالرجل المذنب ؛ ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك ، ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئاً ، ثم شعرت كأنه يزور [1] في نفسه كلاماً يريد أن يفضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له : ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سبباً ؟ فنظر إلي نظرة حائرة ، وقال : إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت : أما كان يصحبها أحد ؟ قال : لا قلت ، ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ قال : لا ، قلت :

---

(١) زور الكلام في نفسه : هيأه .

ومم تخاف عليها ؟ قال : لا أخاف شيئاً سوى أني أعلم أنهـا امرأة غيور حمقاء فلعـل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوءني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ،في حال غير صالحة فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصاً إليهنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له : هل من حاجة يا سيدي ؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي أن لا يدخـل علي من الناس أحـد ، قلت : لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع ، فقلت :

ما بكاؤك يا سيدي؟ قال ؛ أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت : وماذا تريد منها؟ قال : لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها ، قلت : إنها في بيت أبيها ، قال : وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أني مريض مشرف ، وأنني أخشى لقـــاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأنـــني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي ، قبل أن يسبق إلي أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها[1] أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟

نعم إنها قتلتني ! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي .

البيت بيتي ، والزوجة زوجتي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي ، فلم يذنب إلي أحد سواي .

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيق الدنيا في وجهي ! في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما

---

(١) اهتدى الرجل امرأته : جمعها اليه وضمها .

جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسروراً وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً : ان ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين [1] .

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله ، والغباوة في وجوه الأغبياء !...

ولعل الذين كانوا يتوددون إلي ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ؟ ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتي مومساً ، وبيتي ماخوراً [2] وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم !.

فوارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالهفاً على زاوية منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي .

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته

---

(١) يريد : ليتني لم أولد .
(٢) الماخور : بيت الريبة .

بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح : أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ؟ لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثراً خالداً ورائي بعد مماتي ؛ وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً وصاح : أرجعوه إلي ؛ فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً ! ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأساً

وحزنا .

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً موئلاً فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره وإذا امرأة موئزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

• • •

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا يهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

العقـــاب

« موضوعة »[1]

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيل إلي أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه ، فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأناً ولا أهول منظراً ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوباً ، فسألت بعض الواقفين : ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلألؤ الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه

---

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها : صراخ القبور .

رجل يلبس مسوحاً[1] وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً ، فسألت عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيته ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤت بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظراً وزئيرا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرماً تكاد تسلمه قوائمه ضعفاً ووهناً ، فسأل الأمير : ما جريمته ؟ فقال الكاهن : إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غرارة[2] من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين . فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا : ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟ ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدين ، فتسار الأمير مع الكاهن هنيهة ثم صاح : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير الغادي والوحش الساغب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه . فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه . ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقا حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : ما جريمته ؟ فقال : إنه قاتل ، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقح في إبائه ، فانتهره القائد فاحتدم غيظاً وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته . فصاح الناس : يا للفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه ؛ ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ،

---

(١) المسوح جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
(٢) الغرارة : الجوالق .

فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه وقال : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ؛ وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها ، فقال الأمير : ما جريمتها ؟ فقال القاضي : إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : القتل القتل . الرجم الرجم ! ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . فقال الأمير : أين شاهدها ؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلّل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزيناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم ! واعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلماً ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي

ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الايام دينار من غير حله ، فتخف لوعة أسفه على الغرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟ .

ألم تزلّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته. فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟ .

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم ، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ؟ .

من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالة

المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟.

من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟.

من هو القاضي ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟ .

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين وأبراراً طاهرين ؟

عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرماً ، فإذا قتل الأمير القاتل سمّي عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصاً . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها .

كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدّث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية

رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ؛ فرأيت منظراً هائلاً لا يزال أثره عالقاً بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات . ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً ماثلاً ، أو خيالاً سارياً . ورأيت الفتـــاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلا حتى غاب عن نظري كل شيء فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ؛ فما زال يتقدم حتى صار بجانبي فأشعل مصباحاً صغيراً كان في يده فتبينته على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويداً وأشرفهم قلباً ونفساً ؛ فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني

بك وشيكا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك ، فأبكاني بكاؤها وأحزنني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت لمرآي عند النظرة الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها ، فابتدرتها بقولي : لا تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت لو أفضيت إلي بذات نفسك علّني أستطيع أن أكون لك عوناً على نمك ، فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول :

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعد ما كان يستقل بحمله من الهم ، وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة (١) ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ،

---

(١) الفينة : الساعة والحين .

ولا ما نعللهم به تعليلا ، فأسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده فلم أر بدّاً من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلي بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك ، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل ركوتهم[1] فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهداً يتضاغون[2] جوعاً ، ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل ؟ فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفىء لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلا ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من

---

(١) الركوة : وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون .

(٢) يتضاغون من الجوع : يتضورون منه .

قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخاءك من المحسنين إليه فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل[1] أو أفحوص[2] القطاة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة[3] دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش ، ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء[4] تحت جذران البيت يتضورون جوعاً فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلو ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ،وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فانحدرت

---

(١) الحابل : الصائد لأنه يرمي الحبالة للصيد ، وكفته : حبالته .

(٢) أفحوص القطاة : مجثمها . لأنها فحصت عنه التراب لتبيض فيه .

(٣) الغرارة : الجوالق .

(٤) الألقاء : جمع لقى -- كفتى ، واللقى الشيء : الملقى المطروح .

على ردائه فسقط في مكانه مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتى مر به العسس [1] فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ! الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فواأسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده !.

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف ردائها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء ! الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في اعماق الظلام حتى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت ثم احتملته

---

(١) العسس : الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة .

على يدها وأضجعته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة : واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها ، فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ؛ فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت : على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ قلت : أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت : نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرماً ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة اليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . قلت : هل لك أن تقصي عليّ قصته يا سيدتي ؟ قالت : نعم .

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إلي نظرة مريبة طار لها قلبي رعباً وفرقاً ثم سألني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فأستنسأه[1] إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا

(١) استنسأ غريمه الدين : طلب منه أن ينسئه إياه أي : يؤجله له .

أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء. وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعاً ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك ، فقال له لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها ، فغضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له « فلتكن حياتي فداء لشرفي » ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غله[1] الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته ، فلئن بكيته أنا أبكي فتى الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة ، واباء وأفضل الأخوة رحمة وحناناً .

ثم قالت : هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة لا أقوى على شيء ؛ فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها ؟ فرأيت تربة القبر مخضله بدموعها ثم مدت يدها إلي وقالت : شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً ، ومضت لسبيلها .

---

(١) غله : وضع في عنقه الغل .

فأتبعتها نظري حتّى اختفت آخر طية من طيات ردائها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها فهاجني منظرها وقلت في نفسي : إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتّى أضجعتها في حفرتها ، فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي ؟ قلت : فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه ، فقال : إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأناً ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ قلت : نعمْ شأنك وما تريد ؛ وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها ، حتّى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتّى وراها ، ثم التفت إلي وقال : لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إلي نظرة هادئة مطمئنة وقال : نعم يا سيدي ؟ ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها .

أنا الرجل الذي اتهموها به، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ،

وإنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتني كذلك ثم شببنا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني [1] راضياً مسروراً حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات . إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا ، حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه ، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبل بقولها وقال لها : ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه

---

(١) أخطبه : قبل خطبته .

تعدو عدواً سريعاً ، وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأتني فألقت نفسها علي وقالت : إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني ، فارحمني يرحمك الله ؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها ، فأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصغ إليّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي فأعود إلى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات الباتسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلا حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائي وألقيت رأسي على بعض الصخور وأنشأت

أحدّث نفسي وأقول :

ليت شعري ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

أجرم الزعيم الديني لأنه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ، فاضطر الرجل الى ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

وأجرم الأمير لأنة أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجـــرام .

وأجرم القاضي لأنه أراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرماً ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته .

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها .

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ [1]

---

(١) يسمي قدماء اليونان في أساطيرهم المريخ : إله الحرب .

يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من علياله رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به ينتفض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول : « ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحداراً ؛ فـلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمداً ؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها مفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضنّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤسين .

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . »

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

نجيب محفوظ

شهر العسل

دار الشروق

فنجان شای

دق جرس المنبه. تقلب الرجل فى فراشه. تثاءب بصوت مرتفع كالتوجع. أزاح الغطاء وجلس. تزحزح إلى الوراء حتى استند إلى ظهر السرير. تثاءب مرة أخرى. مد يده إلى زر جرس معلق فوق الفراش فضغطه. جاءت امرأة حاملة صينية عليها إبريق شاى وجريدة الصباح فوضعتها على ترابيزة لصق السرير. ملأ القدح بنفسه وتناول الجريدة. لاحظ أن المرأة لم تبرح مكانها فحدجها بعين متسائلة، فقالت:

ـ الأولاد...

ولكنه قاطعها بحدة:

ـ يا فتاح يا عليم، صبرك حتى أغادر الفراش..

وترددت المرأة فعاد يقول:

ـ هذا وقت الشاى والجريدة فلا تفسدى علىّ أطيب أوقات اليوم.

تنهدت المرأة وغادرت الحجرة وهو يتابعها بعينيه حتى أغلقت الباب وراءها. رشف من الفنجان رشفة ثم عكف على القراءة.

* * *

تحركت ستارة مسدلة فوق نافذة. خرج من ورائها رجل مرتديا بدلة سوداء. تقدم بخطوات متمهلة حتى وقف فى وسط الحجرة. نظر فيما حوله، ثم قال بلهجة خطابية:

ـ الحمد لله . .

فتمتم رجل الفراش ورأسه لا يتحول عن الجريدة :

ـ الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـ لو قلت إن كل شىء حسن فربما وقع القول من الآذان موقع الغرابة .

فتمتم رجل الفراش :

ـ ربما .

ـ وقد يتوهم البعض أننا لا نتحرك .

ـ قد .

تضايق ذو البدلة السوداء من تمتمات الآخر فمضى إلى الفراش وراح ينقر على رأسه محذرا ثم رجع إلى موقفه . انكمش رجل الفراش ، ولكنه لم يتحول عن الجريدة وواصل قراءته الصامتة فى هدوء . وقال ذو البدلة السوداء :

ـ نظرة عادلة إلى الوراء كفيلة بإبراز المدى الذى قطعناه .

فهز رجل الفراش رأسه دون أن ينبس .

ـ فى كل شىء بغير استثناء .

فهز رجل الفراش رأسه مرة أخرى دون أن ينبس .

ـ ليعلم ذلك عدونا الخارجى ، وليعلمه عدونا الداخلى .

ونظر ذو البدلة السوداء صوب رجل الفراش مستطلعا فتمتم هذا دون أن يتحول عن جريدته :

ـ كلام طيب .

عند ذاكَ أخلى ذو البدلة السوداء مكانه فاتخذ موقعا جديدا فى ناحية الحجرة المقابلة للفراش ووقف صامتا كتمثال .

* * *

تحركت الستارة مرة ثانية فبرزت من ورائها فتاة جميلة فى لباس البحر. تقدمت مزهوة بجمالها الفتان حتى وقفت فى وسط الحجرة. وجعلت ترسم فى الهواء حركات سباحة كشفت بعمق أكثر عن مفاتنها، ثم قالت بصوت عذب:

ـ سأظهر هكذا فى دور جديد تماما فى الفيلم الجديد «الأبواب الخلفية».

فقال رجل الفراش:

ـ يسعدنى أن أراك هكذا فى أى دور!

ـ ولكنه دور عجيب يجمع بين المرح والمأساة.

فقاطعها بحماس وهو لا يرفع رأسه عن الجريدة:

ـ المهم هو أنت!

ـ يقتلك بالضحك ويثقفك بالهدف!

ـ لا قيمة لشىء سوى قامتك السحرية.

ـ فهو فيلم ترفيهى وهادف معا.

ـ ماذا؟ سمعى ثقيل، هلا حدثتنى فى أذنى؟

دنت الفتاة من الفراش ومالت نحوه فطوق وسطها بذراعه وجذبها نحوه حتى التصقت به.

ـ قلت إنه فيلم ترفيهى وهادف معا.

ـ ماذا؟ قربى أكثر وأكثر.

فصاح ذو البدلة السوداء بصوت راعد:

ـ فيلم ترفيهى وهادف معا، أسمعت ؟!

سحب ذراعه بسرعة. واصل انكبابه على الجريدة. رجعت الممثلة وسط الحجرة. دارت حول نفسها فى حركة استعراضية، ثم مضت ناحية البدلة السوداء واتخذت موقفا.

وقال ذو البدلة السوداء :

ـ الفنانة تريد أن توقظ ذوقك ، ولكنك تأبى إلا أن تراها بشهوتك .

ـ رأيت جسدا جميلا عاريا .

ـ أتريد أن نقدم لك الحكمة فى برميل؟

ـ ما أكثر الأشياء التى تعذب الإنسان!

ـ سنعرض عليك أجسادا عارية .

ـ شكرا!

ـ والويل لك إذا عابثتك شهوة من شهوات الجسد .

وجم الرجل فوق جريدته فسأله الآخر بحدة :

ـ ماذا قلت؟

ـ الويل لى .

* * *

انزاحت الستارة بعنف . دوت فى الجو طلقات رصاص وانفجار قنابل وأزيز طيارات . خرج من وراء الستارة جندى أمريكى وفيتنامى وهما يتبادلان إطلاق النار . تساقطت فوارغ الرصاص فوق الرجل فى فراشه فاضطرب فى مجلسه ، ولكنه لم يرفع رأسه عن الجريدة . رشف رشفة فى عصبية واستمر فى القراءة . وصاح الجندى الأمريكى :

ـ أيها الشيوعى المنحط .

فصاح به الفيتنامى :

ـ أيها الإمبريالى المتوحش .

ـ ماذا جاء بك من الشمال؟

ـ ماذا جاء بك أنت من وراء المحيط؟

ـ الأرض كلها أمريكية . . وغدا سيكون القمر أمريكيا .

فقال الفيتنامى وهو يطلق النار :

ـ وستكون المقابر أمريكية ، سأقتلك ثم أقطف وردا وأرقص .

وكثر تساقط فوارغ الرصاص فوق رجل الفراش ، فقال متذمرا :

ـ ابتعد .

فصاح الأمريكى بالفيتنامى :

ـ انظر كم أنك مزعج للناس .

فصاح به الفيتنامى :

ـ إنه يوجه الخطاب لك أنت .

ـ ما كان ليجرؤ أن يخاطبنى بتلك اللهجة .

ـ إنى أطلق النار عليك . أما أنت فتطلق النار فى جميع الجهات .

وعاد رجل الفراش يقول متأوها :

ـ اللعنة على كل معتد أثيم !

فصاح الأمريكى فى وجه الفيتنامى :

ـ أرأيت أنه يقصدك أنت ؟ !

ـ يالجنون العظمة !

وظلا يتبادلان إطلاق النار حتى فرغت ذخيرتهما فمضيا غير بعيدين من الممثلة ووقفا جامدين . وقال رجل الفراش وهو مكب على الجريدة :

ـ هذا الرجل جدير بكل إعجاب .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ بكل تأكيد .

وقالت الممثلة :

ـ أرأيت كيف أنه يقطف الورد ويرقص فى حومة القتال ؟ !

فقال رجل الفراش بصوت منخفض :

ـ سمعى ثقيل، هلا اقتربت لأسمعك؟

ولكن ذا البدلة السوداء ضرب الأرض بقدمه فساد الصمت.

* * *

تحركت الستارة للمرة الرابعة فخرجت من ورائها امرأة متوسطة العمر تحمل بين ذراعيها ستة من المواليد فوقفت فى وسط الحجرة وقالت:

ـ أنا امرأة من كوبا، ولدت ستة توائم وجميعها فى صحة جيدة!

فقالت الممثلة:

ـ هيهات أن تصلحى بعد ذلك لحياة الأضواء.

ـ ولكنى معجزة من معجزات الحياة!

فقال الجندى الأمريكى:

ـ نحن فى عصر معجزات العلم والصناعة لا الحياة، ومثل هذه المعجزة المزعومة خليقة بأن تدفع العالم إلى أنياب مجاعة شاملة.

فقال الفيتنامى:

ـ لا خوف على العالم من مجاعة ما دامت قنابلكم تحصده.

ـ إنها لا تبيد إلا النفايات.

فقالت الأم:

ـ هل أجد طعاما متوافرا؟

فقال لها الفيتنامى:

ـ توجد ذخيرة بعدد حبات الرمال.

فقالت الأم:

ـ لم أسمع تحية واحدة.

فقال رجل الفراش:

ـ طوبى لك فى الدارين!

ـ شكرا يا سيدى.

ـ ولأبيهم أكبر تحيات التقدير.

ـ أكرر الشكر يا سيدى.

ـ هل لديكم قانون تعليم مناسب؟

ـ عندنا أشياء كثيرة مناسبة.

ـ أهلا بك وسهلا.

وذهبت إلى الناحية الأخرى. جلست على الأرض وراحت تغنى للمواليد. تغنى وتغنى حتى ثقل رأس الفيتنامى بالنعاس فتثاءب، وتبعه الأمريكى على الأثر. وجلسا تباعا على الأرض عن يمين الأم ويسارها. وأوسعت لكل موضعا فى حجرها فتوسده برأسه وغط فى النوم.

* * *

وتحركت الستارة حركة عصبية فخرج من ورائها رجلان، اندفعا إلى وسط الحجرة وكل منهما ممسك برأس الآخر يحاول جهده أن يخفضه إلى أسفل. صاح أولهما:

ـ المارك فوق الجميع.

فصاح الآخر:

ـ الفرنك لا يُعلى عليه.

ـ المارك رمز التفوق.

ـ الفرنك رمز الإنسانية!

ولكم الألمانى الفرنسى فتراجع مترنحا حتى سقط فوق رجل الفراش. نهض الفرنسى من سقطته فهجم على الألمانى ولطمه على وجهه، ثم قبض على رباط عنقه وجذبه منه جذبة قوية فاندلق ناحية

الفـراش حـتى ارتطم برجل الفـراش. واسـتـعـاد توازنه وانقض على خصمه. وجعل كل منهما يحاور الآخر حتى لا يمكنه من نفسه. ونال منهما الإعياء فوقفا متباعدين وهما يلهثان. وقالت الممثلة:

ـ أقترح أن تودعا نقودكما عندى حتى تسويا خلافاتكما!

فابتسم إليها ذو البدلة السوداء وقال:

ـ قول طيب، أحسنت.

فخطت نحوهما خطوتين وقالت بإغراء:

ـ لدى موضوع يصلح للإنتاج المشترك.

فقال الألمانى:

ـ أوافق أن يكون عن حرب ١٨٧٠.

وقال الفرنسى:

ـ حرب ١٩١٤ أهم وأخطر.

فقالت الممثلة:

ـ هو عن امرأة مريضة نفسيا، وأعراض مرضها أن تسير عارية وهى نائمة!

فقال رجل الفراش وهو مكب على جريدته:

ـ مرض ممتاز.

وقال الفرنسى:

ـ أعطينا مثالا لتلك الحالة المرضية.

مدت يديها للجزء الأعلى من لباس البحر كأنما لتنزعه ولكن ذا البدلة السوداء قال:

ـ ليس فى وسط الحجرة!

فقال رجل الفراش:

ـ يهمنى أيضا أن أرى ما يجرى فى بيتى .

فقال الآخر بحدة :

ـ الأجانب يستحقون معاملة خاصة !

ـ لقد عانيت من صراعهم فمن حقى أن أشاركهم بعض المسرة !

فقالت له الممثلة :

ـ لا من أهل المال أنت ولا من أهل الفن .

فتساءل منكرا :

ـ أفندم؟ سمعى ثقيل .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ألاحظ أن أذنك تعمل بحسب هواك .

ـ إنى أمارس حريتى من خلال أذنى .

ـ سأسمعك بنفسى ما يتعذر عليك سماعه .

ـ شكرا ، لا داعى لتكليف خاطرك !

اندست الممثلة بين الرجلين فتأبطت ذراعيهما ومضت بهما إلى موضعها السابق .

ومن وراء الستارة خرج رجلان ، يحمل أولهما كتبا ويحمل الآخر قوارير . وقفا جنبا لجنب وسط الحجرة ثم قال حامل الكتب بصوت عريض رنان :

ـ من ذخائر التراث ، تفسير القرآن ، طبعة أنيقة مع تعليقات بأقلام أكبر الأساتذة ، الثمن جنيه واحد .

وقال حامل القوارير بصوت منغوم :

ـ أفخر أنواع الويسكى ، وردت منها كميات محدودة ، بأسعار محددة ومعقولة تتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات .

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

ـ ألا تميزون أرباب الأسر بشيء من التخفيض؟

ـ يختص بالتخفيض الطلبة فقط .

ـ وأرباب الأسر؟

ـ الثمن معقول جدّا . .

ـ شكرا .

وعاد حامل القوارير يقول :

ـ أفخر أنواع الويسكى ، كميات محددة وأسعار زهيدة!

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

ـ أحرام أن يتناول المسلم قليلا من الويسكى كدواء؟

فأجاب حامل الكتب :

ـ إنى أتناول كأسا قبل النوم كدواء لضيق الشرايين .

ـ ولكنى أشكو ثقلا فى السمع؟!

فقال حامل القوارير :

ـ ثقل السمع عرض مرضى لضيق الشرايين .

ـ ولكن ثمن الويسكى كفيل بسد الشرايين .

وتدخل ذو البدلة السوداء فى الحديث فخاطب حامل القوارير قائلا :

ـ قف جنب السيد الفرنسى فهو يحب المرح .

وتحول إلى حامل الكتب قائلا :

ـ قف جنب السيد الألمانى فلعله أن يكون مستشرقا .

ثم التفت إلى الممثلة وقال :

ـ همتك ، لديك قرآن وويسكى وموضوع مشترك!

* * *

تحركت الستارة فخرج من ورائها رجلان من رجال الفضاء، روسى وأمريكى، سارا بخفة نحو وسط الحجرة، تصافحا، ثم قال الروسى لزميله الأمريكى:

ـ أصدق التهانى.

فقال الأمريكى:

ـ ومنى إليك أصدق التهانى.

ـ لا يهم أننى سبقتك إلى التجربة ما دمت تتقدم بنجاح، تهانى..

ـ المهم هو النجاح، وسألحق بك، وسوف أسبقك، تهانى..

ـ لا أظن أنك ستسبقنى أبدا، فات أوان ذلك، تهانى.

ـ أراك لا تعمل حسابا للمفاجآت الأمريكية، تهانى.

فقال رجل الفراش:

ـ إنكما حلم وردى فى عالم قطران!

ـ شكرا أيها الرفيق.

ـ شكرا أيها الزبون.

فقال رجل الفراش:

ـ بفضل العلم تقع معجزات.

فقال الروسى:

ـ وبفضل النظام الشيوعى.

فقال الأمريكى:

ـ بل بفضل النظام الرأسمالى.

فقال رجل الفراش:

ـ لقد ارتفعتما إلى سماوات الله عز وجل.

فقال الروسى:

ـ رأيت الكواكب تسبح فى أفلاك متأثرة باختلاف أحجامها فمساراتها متحددة بصراع طبقى أزلى سرمدى.

فقال الأمريكى:

ـ وهناك الشمس تمد الكواكب بالحرارة والضوء كالمعونة الأمريكية.

ـ ألم تريا شيئا وراء ذلك؟

فقال الروسى:

ـ لا شىء وراء ذلك.

ولكن الأمريكى صاح:

ـ رأيت الله.

ـ كيف؟!.. أين؟..

ـ نور يخطف الأبصار، يشع فى منطقة من السماء تقع فوق البيت الأبيض.

فقال له الروسى:

ـ يا لك من دجال!

ـ اخرس أيها السفاك.

ـ سندفنكم أحياء.

ـ سندفنكم أمواتا.

فهتف رجل الفراش متأوها:

ـ الغوث!

فصاح به ذو البدلة السوداء:

ـ هأنتذا تسمع كل كلمة تقال.

ـ أسمع وشا، لعله ضيق الشرايين، إلىّ بقليل من الويسكى...

ـ معك عملة صعبة؟

ـ ولا سهلة!

ـ كف عن شرب الشاى فإنه مثير للأعصاب.

ـ إنه يهبنى أطيب ساعات اليوم!

وهتفت الممثلة بنرفزة:

ـ لا أستطيع أن أعمل فى هذا الجو الصاخب.

فقال رجل الفراش بقلق:

ـ من الحمق أن نترك هذين العملاقين يتخاصمان.

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ منذا يجزم أين تقع المصلحة؟

وتقدمت الممثلة من رجلى الفضاء وقالت وهى تشير إلى الأم:

ـ يوجد صغار نيام!

فكظم كل حنقه. وقال الروسى بوجه متجهم مخاطبا زميله:

ـ تهانى..

فقال الآخر بازدراء:

ـ تهانى..

وذهبا مع الممثلة فاتخذا لهما موقفا.

* * *

ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة فى العشرين من عمرها، فى منى جيب، معلقة حقيبتها بكتفها، ووقفت فى وسط الحجرة وقالت:

ـ أنا فتاة مثقفة، أتقن العربية والإنجليزية وأعمال السكرتارية، أريد وظيفة سكرتيرة.

هرش رجل الفراش ذقنه. أما ذو البدلة السوداء فقد سألها:

ـ ألم تقيدى نفسك فى إدارة القوى العاملة؟

ـ بلى . .
ـ عليك أن تنتظرى دورك .
ـ طال الانتظار ، أريد وظيفة حرة .
فقالت لها الممثلة :
ـ أعرف شخصا مهما فى حاجة إلى سكرتيرة !
ـ إنى مستعدة لمقابلته فى الوقت الذى يحدده .
فقال رجل الفراش :
ـ ولكنك لا تعرفين عنه شيئا؟
ـ أعرف عملى وكفى .
فقال الرجل بتأثر :
ـ فكرى قليلا ، إنى أحدثك بلسان أب .
ـ كأنك يا سيدى تخاف علىّ؟
ـ الناس أشرار يا بنتى وأنت صغيرة السن .
ـ لست صغيرة .
ـ ما زلت فى طور البراءة !
ـ لست هشة ولا خوف علىّ .
ـ إنك تعرضين نفسك لخطر فادح .
ـ إنى أحتقر هذا الإشفاق !
ـ إنى أب . .
ـ بل جد ، وأقدم من ذلك !
ـ سامحك الله .
ـ سأجد فى العمل حريتى وكرامتى .
ـ قد . . قد . . .

ـ لا أسمح لأحد بالتدخل فى شئونى .

ـ ثمة أخطار .

ـ أخطار ! . . ألم تسمع عن غزاة الفضاء؟!

ـ معذرة يا آنسة .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ليتك تعرف نعمة السكوت .

فقالت لها الممثلة :

ـ انضمى إلينا مؤقتا ، ثمة شركة فى دور التكوين .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل عجوز أنيق الملبس ، وقف وسط الحجرة وقال بنبرة شبه باكية :

ـ يا بنى ، عد إلى أبيك . . طلباتك مجابة .

فسأله ذو البدلة السوداء :

ـ متى اختفى؟

ـ منذ أسبوع . .

ـ بحثت عنه فى مكانه؟

ـ لم أترك مكانا واحدا .

ـ ما عمره؟

ـ ستة عشر عاما .

ـ ما مشكلته؟

ـ كل شىء ولا شىء بالذات . .

ـ رأى ، سلوك ، ذوق ، هه؟

ـ نعم . وعلم الله ما راعيت إلا مصلحته .

فقال له رجل الفراش :

ـ إنى أرثى لك .

ـ شكرا .

ـ ليس زماننا بزمان الآباء .

ـ زمان قذر .

فصاح به ذو البدلة السوداء :

ـ لا تسب الزمان فهو الدولة .

فعاد الرجل يردد بهدوء حزين :

ـ يا بنى ، عد إلى أبيك . . طلباتك مجابة .

واختار لنفسه موقفا جنب حامل الكتب .

* * *

من وراء الستارة خرجت فتاة صعيدية حاملة مقطفا كبيرا ، تبعها على الأثر صعيدى فى الخمسين ، وقفا فى وسط الحجرة فسألته الفتاة :

ـ لم جئنا إلى هنا يا أبى؟

فهوى بكفه على وجهها وصاح :

ـ لأنقذ شرفى من الفساد .

ندت عن الفتاة صرخة مدوية . رمت بالمقطف وجرت نحو الفراش فأحاطها الرجل بذراعه . سرعان ما لحق بها الأب ولكى يخلصها من ذراع الرجل انهال على صدره ضربا حتى سحب الرجل ذراعه متأوها . جذبها إلى وسط الحجرة ، طرحها أرضا ، استل خنجرا وانهال عليها طعنا حتى أخمد أنفاسها . ثم دفنها فى المقطف ، وغطاها بخمارها ، وهو يتمتم بتشف :

ـ الآن ردت الحياة إلىّ .

فقال له ذو البدلة السوداء :

ـ ستفقدها وراء القضبان أو فوق المشنقة .

فقال باستهانة :

ـ طظ !

ـ متى تحترم القانون؟

ـ طظ .

وحمل المقطف ومضى به صوب الفراش فدفعه تحته . تأوه رجل الفراش وقال له :

ـ يا لك من وحش !

فقال له بازدراء وهو يرجع إلى وسط الحجرة :

ـ كيف يعد أمثالك من الرجال؟!

ـ كيف طاوعتك يدك على قتل ابنتك؟

ـ يوجد شيء اسمه الشرف .

ـ وتوجد أيضا الحماقة .

فأشهر خنجره مرة أخرى وهو يتساءل فى ريبة :

ـ ماذا يحملك على الدفاع عنها؟

ـ ولكن ذا البدلة السوداء بادر إليه فأخذه من ذراعه إلى الناحية الأخرى .

* * *

وترامى عزف أوركسترا وتخت بلدى فى وقت واحد . وخرج من وراء الستارة رجلان ، أولهما فى لباس مغنى أوبرا والآخر مغنى بلدى . وقفا فى وسط الحجرة وراحا يغنيان فى وقت واحد ، كل بطريقته . فأحدثا صخبا متنافرا مزعجا مضحكا . ولما ختما غناءهما تصافحا ببرود ، مغنى الأوبرا فى احتقار لم يفلح فى مداراته ، والمغنى البلدى

داری ضحكة أوشكت أن تفلت منه . فى أثناء ذلك تقلص وجه رجل الفراش من الانزعاج، وتساءل :

ـ أبكما مس أم ألم ملح؟

ـ نحن بخير .

ـ لماذا تصرخان؟

ـ غنينا كأحسن ما يكون الغناء .

ـ أكان ذلك غناء؟

ـ أسمعناك الشرق والغرب معا .

ـ ألم يكن الأفضل أن نسمع كلا على حدة؟

ـ أصلنا ننتمى إلى مؤسسة واحدة . .

وزاد الأوبرالى على ذلك أن قال :

ـ أنا المستقبل، وزميلى الفاضل يمثل الماضى . .

فغضب المغنى البلدى وقال :

ـ أنا مغن، أما هذا الرجل فهو مجنون يصرخ بلا سبب .

وتبادلا صفعتين، وتوثبا لعراك أشد . . فصاح رجل الفراش :

ـ اذهبا . . اتركانى فى سلام .

فقال ذو البدلة السوداء باستياء :

ـ تأدب فى مخاطبة المغنين الرسميين!

وأشار إلى الرجلين فأمسكا عن الخصام وذهبا معا إلى الناحية الأخرى .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها طالب ثم شرطى، وقفا فى وسط الحجرة وهما يتبادلان نظرة متوجسة، وسأله الشرطى :

ـ لم تتسكع فى الطرقات؟

فتساءل الطالب بتحد:

ـ لم تتبعنى كظلى؟

ـ أنا ظل الأشياء المعوجة!

ـ ألا تشم فى الجو رائحة غبار خانق؟

فتشمم الشرطى الجو وقال:

ـ فى الجو غبار خانق!

ـ إنى أبحث عن هواء نقى..

ـ ولكنك بتسكعك تثير مزيدا من الغبار الخانق..

فضحك الطالب ضحكة جافة وقال:

ـ الليل ينشر جناحيه بينا الشمس ما زالت فى كبد السماء فما تفسيرك لذلك؟

ـ لعل الليل أسرع أو أن الشمس تباطأت..

ـ فما علاقة ذلك بتحديد مرات السقوط؟

ـ مثل علاقته بإهدار المال بلا حكمة..

ـ واضح أنك تهذى.

ـ وأوضح منه أنك قليل الأدب.

وقذف الطالب الشرطى بطوبة فلم تصبه، ولكن أصابت رجل الفراش فتأوه دون أن يرفع رأسه عن الجريدة. تراجع الشرطى خطوات، لوح بهراوته استجماعا لقوته ولكنها فى حركاتها العشوائية أصابت رجل الفراش فى قدمه ومنكبه فتأوه مرة أخرى. تبادلا الضرب حتى نزفت دماؤهما فتباعدا وهما يترنحان من الإعياء والإنهاك. وهتف رجل الفراش:

ـ وما ذنبى أنا؟

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ لا تفتأ تتدخل فيما لا يعنيك!

ـ ولكن القتال يدور فى حجرة نومى . .

ـ عال فأنت أصلح شاهد للإدلاء بما رأى، ما سبب المعركة؟ ومن البادئ بالضرب؟

ـ للمعركة أسباب غير عادية .

ـ مثال ذلك؟

ـ الغبار والتسكع والليل والشمس .

ـ يا لك من شاهد فاجر!

ـ أقسم لك . . .

فقاطعه بحدة :

ـ ومرات السقوط فى الامتحان ألم تسمع بها؟

ـ إن سمعى ثقيل كما تعلم .

ـ هأنتذا تعود لادعاء الصمم، واضح أنك مغرض!

ـ علم الله . .

ـ فمن الذى بدأ الضرب؟

تلقيت ضربتين متعاقبتين، ولكن تعذر علىّ تحديد المصدر البادئ!

ـ فاجر، ألم أقل إنك شاهد فاجر؟!

ـ دعنا من التحقيق .

ـ دعنا من التحقيق؟!

ـ واضح أن أعصابهما تحتاج إلى عقاقير فعالة .

ـ الصيدليات ملأى بالعقاقير .

ـ الحاجة ماسة إلى طبيب لا إلى شرطى .

ـ ألست طبيبا؟ . . إنى أناقشك طيلة الوقت باعتبارك طبيبا!

ـ أنا طبيب حقّا، ولكنى فى إجازة مرضية . .

ـ أصبحت قادرا على الحركة فى بيتى فأنا أغادر الفراش وقتما أشاء، ولكن تلزمنى بضعة أيام راحة قبل أن أمضى إلى الخارج لمزاولة نشاطى المعتاد.

ـ حسنا، لا تبدد قواك فى الثرثرة حتى تسترد صحتك.

ومضى الرجل إلى الطالب والشرطى فأخذهما إلى موقف فى الناحية الأخرى.

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها زنجى وعربى مسلح، وقفا فى وسط الحجرة وقال الزنجى:

ـ المشوار طويل فيما يبدو.

ـ أجل . . إنه يبدو كذلك.

ـ أين أنت ذاهب؟

ـ إلى آسيا، وأنت؟

ـ أنا متردد بين أمريكا وإفريقيا.

ـ وما مشكلتك؟

ـ فى أمريكا يحاصرنى الاضطهاد باعتبارى الأقلية، وفى إفريقيا يحاصرنى باعتبارى الأغلبية.

ـ يا له من اضطهاد كالقدر! ما سببه؟

ـ لأنى أسود، هكذا يقال.

ـ أن تضطهد وأنت أقلية فتلك رذيلة شائعة، ولكن كيف تضطهد وأنت الأغلبية؟

ـ ثمة رجل أبيض يحتكر الاضطهاد، ويمارسه حيثما وجد.

ـ ولكنى أراك لا تحمل سلاحا؟

ـ كان لنا زعيم يدعو إلى الحب والسلام.

ـ وهل استجابوا له؟

ـ قتلوه غيلة!

ـ ما كان أجدره أن يقتل وهو يقاتل.

ـ آمن بأن الحب أقوى من جميع الأسلحة.

ـ لا مكان إلا لنوعين من الإنسان، واحد يقاتل بقلب ملؤه الشر، وآخر يقاتل بقلب ملؤه الخير.

ـ لعلك من النوع الأخير؟

ـ لعلى.

ـ وما مشكلتك أيها المقاتل؟

ـ لقد سرقت.

ـ سرقوا مالك؟

ـ سرقوا وطنى!

ـ وطنك؟!

ـ بجباله وأنهاره وحقوله وتاريخه ثم قذفوا بى إلى العراء.

ـ أى قطاع طرق؟!

ـ وراءهم يقف الذين يضطهدونك.

ـ لذلك تحمل السلاح؟

ـ ولذلك يجب أن تحمل السلاح.

ـ ولكن أين أجده؟

وهنا قال رجل الفضاء الروسى:

ـ تجده عندى إذا أردته.

ـ ولكنى لا أملك ثمنه .
ـ يمكن الاتفاق على ذلك دون إرهاق .
فصاح رجل الفضاء الأمريكى مخاطبا الزنجى :
ـ تجنب هذا الرجل فإنه لم ير الله فى السماء .
فقال رجل الفضاء الروسى :
ـ أحذرك من أضاليل هذا الزميل فقد زعم أنه رأى إلها أمريكيا .
ـ لم أقل إنه يحمل الجنسية الأمريكية ، ولكن ثبت لى أنه إله العالم الحر .
فسأله الزنجى :
ـ هل آنست عنده ازدراء للسود؟
ـ إنه نور فطبيعى أن يفضل من عباده من على صورته .
ـ هل أدركت فى حضرته سر ذلك كله؟
ـ إن حكمته تجل عن أفهامنا ، إنه فوق التصور والخيال ، آه لو رأيته فى مقامه السنى فوق البيت الأبيض !
فصاح رجل الفضاء الروسى :
ـ ألم أقل لك إنه دجال؟
وقال العربى المسلح :
ـ دعونا من السماء ، على الأرض تُسرق أوطان ويضطهد أبرياء ، وعلى المسروق والمضطهد أن يحملا السلاح ، وأن يتعاونا مع من يعطيهما السلاح ، وأن تفسر حكمة الله على ضوء ذلك !
ـ أنت شيوعى !
ـ أنت إمبريالى !
ـ أنت ظالم !
ـ أنت أسود !

ـ أنت دجال!

ـ أنت سفاح!

وتأوه الرجل فى فراشه وعيناه لا تتحولان عن الجريدة، فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ مالك.. ماذا تريد؟

ـ أريد سلاحا!

ـ ولكن إجازتك المرضية لم تنته بعد.

ـ أريد سلاحا!

ـ اصبر..

ـ ألم تسمع ما قيل؟

ـ سمعت واقتنعت، ولكن إجازتك لم تنته بعد.

ـ إنى أقرأ فى رأسك أفكارا غريبة!

ـ إن أردت الصراحة فإن تعليقاتك المتكررة لا توحى بالثقة!

ـ لعلك لا تعرفنى على حقيقتى.

ـ إنى أعرفك أكثر مما تتصور!

ـ أنا رجل مخلص ومستعد للقتال.

ـ ولكنك غير مدرب على استعمال السلاح.

ـ إذن أتدرب.

ـ اصبر حتى تنتهى إجازتك.

ـ طيب.. أعطنى كأسا من الويسكى..

ـ معك عملة صعبة؟

فتنهد الرجل بصوت مسموع، وعند ذاك قال له رجل الفضاء الأمريكى:

ـ أتريد السلاح حقّا؟

ـ أجل . .

ـ والويسكى؟

ـ أجل . .

ـ عهد الله أعطيك ما تريد من سلاح وويسكى .

ـ حقّا؟!

ـ كلمتى ميثاق!

ـ ولكنى لا أملك نقودا .

ـ لا يهم .

ـ أتعطينى ما أريد بلا مقابل؟

ـ بشروط لا تستحق الذكر ، انتظر . .

وتحرك متجها نحو الفراش ، ولما بلغه وجد ذا البدلة السوداء فى انتظاره ، فقال له :

ـ أريد أن أحادث هذا المريض على انفراد .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ليس بينى وبينه سر!

ـ المرضى فى وطننا الأمريكى يتمتعون بحريات هائلة!

ـ فقال الزنجى :

ـ كذاب!

تحول نحوه غاضبا ، ولكن ذا البدلة السوداء حال بينهما ، ثم أوسع لهما مكانا بين الآخرين .

* * *

من وراء الستارة خرج رجل قصير نحيل ، يلفه الحياء حتى بدا

كطفل، وقف فى وسط الحجرة و راح ينظر فيما حوله بارتباك. همّ بالكلام مرة ومرة ولكنه لم ينبس. وإذا برجل جديد يخرج من وراء الستارة. ضخم مهيب ذو لحية مدببة، اتخذ موقفه أمام الرجل الأول فأخفاه عن الأنظار وقال بنبرة متعجرفة:

ـ أنا رجل ألمانى من بون.

فسأله الألمانى الأول:

ـ ألديك معلومات جديدة عن المارك؟

فقال بالنبرة المتعجرفة:

ـ لا أقيم الآن فى ألمانيا، لم أجد هناك المعاملة اللائقة، أنا مواطن عالمى، ولدى اختراع كيماوى مذهل.

فسأله رجل الفراش:

ـ أله فائدة فى تجديد الشباب؟

وسأله الزنجى:

ـ هل يجدى مفعوله فى تهذيب الخلق الإنسانى؟

وسألته الأم:

ـ هل ينفع غذاء للأطفال؟

فقال:

ـ إنه مسحوق غامض، يكفى الجرام منه لإبادة خمسين مليونا من البشر.

هب الجميع فى اهتمام ساحق. حتى الأمريكى والفيتنامى استيقظا ووثبا واقفين. قال الألمانى الأول:

ـ لعلهم جهلوا مقاصدك أيها الأخ العبقرى فلم يحسنوا معاملتك، عد إلى وطنك.

ولكن رجل الفضاء الأمريكى قال :

ـ أيها الأخ العبقرى ، أمريكا هى وطن العلماء ، عندنا برج بابل يعيش فيه العلماء من مختلف الأجناس عيشة الأباطرة ، اذهب إلى وطنك الحقيقى أمريكا !

وقال له رجل الفضاء الروسى :

ـ ليكن مسحوقك فى خدمة الملايين الكادحة لا فى خدمة حفنة من مصاصى الدماء .

وقال له العربى :

ـ يلزمنى ملليجرام من مسحوقك العبقرى !

وسأله ذو البدلة السوداء :

ـ هل سبق لك زيارة معبد الكرنك تحت شمس الشتاء المشرقة؟

فقال الألمانى بعجرفة :

ـ تلزمنى مهلة للتفكير .

وذهب إلى ناحية الواقفين فاتخذ مكانا . وبذهابه ظهر مرة أخرى الرجل القصير النحيل .

وقال له رجل الفراش :

ـ كان المنتظر أن تبدأ أنت بالكلام .

فابتسم فى حياء دون أن ينبس فسأله :

ـ بالله ماذا يمنعك من الكلام؟

فتغلب على حيائه وقال :

ـ أعتقد أننى بصدد اكتشاف طريقة ناجعة لمعالجة السرطان .

وساد صمت شامل حتى واصل حديثه قائلا :

ـ لقد جربتها على مرضى كثيرين فنجحت بنسبة ٤٠٪ ، ولكنى

فى حاجة إلى مزيد من البحث والتجريب وتلزمنى تكاليف باهظة!

وساد الصمت. صمت ثقيل، حتى قال الفرنسى هامسا:

ـ هذا الرجل يستحق التشجيع، ولولا أزمة الفرنك...

فقال الألمانى:

ـ إنه جدير بالتشجيع، ولكن من أدرانا أنه ليس دجالا؟

فقالت الممثلة:

ـ إن تكشف عن دجال فأنا أرشحه لتمثيل دور فى فيلمنا المشترك.

وقال رجل الفضاء الأمريكى:

ـ أبحاث السرطان متقدمة عندنا..

فقال رجل الفضاء الروسى:

ـ يمكن أن نستضيفك عاما فى المعهد الطبى الشيوعى.

فصاح رجل الفضاء الأمريكى:

ـ يمكن أن نستضيفك عامين، ولكن إذا زرت روسيا تعذر عليك دخول بلادنا.

ونفخ رجل الفراش بصوت مسموع فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ ماذا تشكو؟

ـ أريد كأسا من الويسكى.

ـ تمر بك الأحداث وأنت لاه عنها بشهواتك!

ـ أعطنى سلاحا..

ـ تريد أن تسكر وتطلق النار على غير هدى!

وأشار إلى الرجل القصير النحيل إشارة خاصة فمضى ليتخذ موقفا بين الواقفين.

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل ملفوف فى كفن لا يظهر منه إلا رأسه، وقف فى وسط الحجرة وقال:

ـ أنا المدير العام لمؤسسة م. م. م.

فقال له رجل الفراش:

ـ تشرفنا يا فندم.

ـ انتقلت إلى رحمة الله على أثر نوبة قلبية أصابتنى وأنا جالس إلى مكتبى.

ـ ليرحمك الله.

ـ الموت أكبر كارثة فى الوجود، أكاد أجن كلما تصورت أن العالم سيمضى فى طريقه عقب اختفائى كأننى لم أعايشه دقيقة واحدة.

ـ أكنت تتوقع أن يتوقف من الحياة إكراما لك؟

ـ هذه هى مأساة الوجود الحقيقية التى تفقده أى معنى من المعانى!

ـ صدقنى فإن العالم مثقل بهمومه بحيث يغفر له ألا يشعر بموتك.

ـ ذهبت الحياة بجمالها وسحرها وآمالها!

ـ ليرحمك الله.

ـ ما لقلبك جامدا هكذا، حتى الحيوان يحزن.

ـ حزنى للحياة لم يترك فى قلبى موضعا للحزن على الموت!

ـ مت وحيدا وهأنذا أحزن وحدى.

ـ لتكن الجنة مثواك.

ـ وأنا والد س و ص بالجامعة، وشقيق أ بمؤسسة م. م. م.، وعم د. بمؤسسة م. م. م.، وابن خالة ز بمؤسسة م. م. م.، وستشيع الجنازة من مسجد عمر مكرم فى تمام الثانية عشرة ظهرا ولا عزاء للسيدات.

ـ سأعزى بتلغراف.

ـ ولم لا تشيع جنازتى بنفسك؟

ـ إنى مريض كما ترى.

ـ تستطيع أن تشيع جنازتى لو بك رغبة فى ذلك.

ـ أخشى أن أصاب بنكسة.

ـ أنانى لا تفكر إلا فى نفسك.

ـ لا وقت عندى للتفكير فى نفسى ولا فيمن يموت.

ـ ليت يومك كان قبل يومى.

ـ أنتم السابقون ونحن اللاحقون..

وبدأ الرجل يتحرك ببطء ليتخذ موقفه بين الجماعة. وفى أثناء سيره قال ذو البدلة السوداء:

ـ مات رجل من جيل الثورة المضادة.

فقال رجل الفضاء الأمريكى:

ـ فقدنا صديقا ذا استعداد طيب للتفاهم.

وقالت الممثلة:

ـ نقص رواد السينما رجلا ولا كل الرجال.

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل وجيه بدين أنيق الملبس رغم ضخامته الفذة، وقف فى وسط الحجرة ثم بسط صحيفة وراح يقرأ منها بصوت جهورى:

ـ من واجبى، من حقى، أن أقول رأيى كما يجدر بصحفى يحترم نفسه ويحترمه الجميع، وأن أصيغه بالوضوح الكامل لنخترق الظلمات إلى رؤية مضيئة لعلنا نهتدى إلى مرفأ آمن فى هذا البحر العاصف الذى تتلاطم أمواجه كجبال من الظلام، سأقول الحق بوضوح مهما كلفنى ذلك من جهد ومن تضحية. لذلك أقول لكم:

الوعى قضية، تسير مسارها الطبيعى إلى نقيضها وهو اللاوعى، وعلى أثر تقدم مطرد يتكون تركيب جديد من النقيضين هو المرض. بمعنى آخر الوعى + اللاوعى = المرض. إن يكن عصابا فهو مرض نفسى، وإن يكن ذهانا فهو مرض عقلى. ذلك أن كل شىء يخضع فى النهاية للديالكتيك. ولا يلبث التركيب الجديد (المرض النفسى أو العقلى) أن يتحول إلى قضية جديدة تبحث بدورها عن نقيضها كما تبحث المراهقة عن عريس، ونقيض المرض هو الصحة النفسية، ثم يجمعها تركيب جديد آخر بحكم حتمية الديالكتيك، وهذا التركيب الجديد يتكون من المرض والصحة، مرض ديالكتيكى وصحة ديالكتيكية، وهى حال لا هى صحة ولا هى مرض، وإذا ترجمناها إلى لغة فلسفية أمكن أن نطلق عليها «حال وجودية». ويغلب عادة أن تكون من نوع الوجود فى ذاته، ولكن يتدخل قوى قهرية باغية تتحول إلى نوع آخر هو الوجود لذاته، ويخشى فى تلك الحال أن تتحول إلى وضع أجوف أو ما يسمى فى الهندسة بالفراغ، فراغ مشحون بالقلق السرمدى، ولا علاج لذلك إلا بالمزيد من الديالكتيك. هذه هى حقيقة المسألة بلا حشو ولا إسهاب ولا موجب له، شرحتها متوخيا البساطة والوضوح، بلغة شعبية جديرة بمخاطبة شعب عظيم يمر بلا شك بمحنة عصبية، ويتوثب لقهر ما يعترض سبيله من عقبات، مصمما على الصمود والنجاح، ألا هل بلغت؟

أعقب كلمته صمت، استمر حتى خرقه رجل الفراش قائلا:

ـ شكرا يا سيدى، ولكن ثمة أسئلة حائرة أود أن أوجهها إليك.

فقال بهدوء:

ـ صناعتى هى الكتابة لا الكلام.

ـ ولكنها أسئلة ملحة يا سيدى.

ـ اكتبها فى ورقة وسأجيب عليها كتابة.

وتكرم بإعطائه ورقة وقلما فتناولهما الرجل وسجل أسئلة ومد بها يده إليه . قرأها الصحفى بعناية ثم سجل بدوره إجاباته عليها ثم راح يقرؤها :

ـ بالنسبة للسؤال الأول الجواب : محتمل .

بالنسبة للسؤال الثانى الجواب : بين بين .

بالنسبة للسؤال الثالث الجواب : نعم ولا .

بالنسبة للسؤال الرابع الجواب : لعل وعسى .

بالنسبة للسؤال الخامس الجواب : إنه سلاح ذو حدين .

بالنسبة للسؤال السادس الجواب : خير الأمور الوسط . .

فتمتم رجل الفراش :

ـ شكرا يا سيدى .

فرد الصحفى الشكر بهزة من رأسه وانتقل إلى الناحية الأخرى ، طوى رجل الفراش الجريدة ، ثم احتسى آخر رشفة من الشاى . هبط إلى أرض الحجرة . راح يسوى جلباب نومه ويتثاءب . وفى الحال أحدق به جميع الحاضرين بغير استثناء . جعلوا يدورون حوله مرددين مقاطع من أقوالهم السابقة فى وقت واحد . تخلل دورانهم طلقات نارية ، انفجار قنابل ، أزيز طيارات ، صرخات آدمية . وكلما أتم أحدهم دورته زحف تحت الفراش واختفى حتى خلت الحجرة ولم يعد يبقى بها سواه . وفتح الباب وظهرت عنده المرأة وهى تتساءل :

ـ شربت شايك ؟

فأحنى رأسه بالإيجاب فقالت وهى تختفى فى الداخل :

ـ أظن آن لنا أن نناقش مشاكلنا العاجلة !

فمضى نحو الباب وهو يتمتم :

ـ استعنا على الشقا بالله .